الفصل السادس

تصنيع الجمال

المكان الحقيقي للجراحة التجميلية

obeikandl.com

obeikandl.com

١- من المرأة الشيء إلى المرأة الجذابة، طريق طويل، طريق جميل

أليس من القوة والضعف معاً أن نرى في الإنسان حقيقة الوجود نفسه، وجود ظاهري، سطحي كبشرة الإنسان نفسها التي لا يمكن إنكار وجودها؟ ولكنّ هذه البشرة ربما كانت آخر ما نتذكره عن هيئة الإنسان عند رؤيتها.

إن الرغبة في الجمال قديمة جداً وترجع إلى ما قبل التاريخ وقد وُجدت آثار من الكحل وأدوات الزينة في مقابر من حقبة ما قبل التاريخ في مصر واليونان.

يثير الجمال على الدوام إحساساً طيباً وشعوراً بالانجذاب.

لقد كان البحث عن الجمال ولمدة طويلة السبيل الوحيد للتعبير عن الجاذبية، وكان الرجال يتمثلون القوة والذكاء تاركين للنساء الجمال بما فيه الحاجة الجنسية.

وبذلك بدأ الجنس الضعيف يقوى بجماله ولكن طبقاً لمعايير الرجل الذي مازال قوياً.

وبدأت فيما بعد أوصاف المرأة الجميلة تظهر على الملأ رسماً ونحتاً وتصويراً وشعراً وغناءً..

لقد جعل الرجل من المرأة طيباً ولكنه أوصد الأبواب من ورائها وسدَّ عليها كوى النور ودفنها أيضاً في أعماقه.

ثم جاء القرن الماضي ليشهد على تمرد المرأة على هذا الجمال الحبيس المفروض عليها وبدأت هي نفسها تختار معايير جمالها، إنها لم تعد أنثى الرجل بل أنثى بحسب تصوّرها.

وبدأت بالظهور تقليعات تثبت انقلاب صورة المرأة التي قصت شعرها على غرار ما يبدو عليه الرجل في عصرها.

لقد أصبح جمال المرأة يفرض كيانه واستقلاليته ومعه حصلت المرأة على استقلاليتها الاقتصادية لتبدأ بالابتعاد تدريجياً عن التصور الذكوري لها دون أن تتخلى بالطبع عن أنوثتها، لقد بدأت المرأة تجسد حقيقة جديدة.

obeikandi.com

أعادت الحياة لأمور التزّين والأزياء في الألبسة لتظهر ملامحها أكثر للعيان ولتحتل الموقع بأنوثة جديدة تتنفس الحرية وتتسم بالأناقة المبسّطة نسبياً وهي أولى مراحل المرأة في التعبير عن تحررها بإبراز ما ترتأيه جمالياً في جسدها وكأنها تُبرز كيانها لتُسمِعَ صوتها.

ولكن سرعان ما انقلبت هذه الجمالية الأنثوية إلى لعبة أنثوية للملذات فوقعت المرأة من جديد فريسة سهلة وفرصة ذهبية لمختبرات المواد التجميلية ليبدأ معها جمال المرأة بالظهور كسلعة استهلاكية من الدرجة الأولى.

لقد استطاعت الصناعة التجميلية نقل رصيد حرية المرأة لحسابها لتطوير منتجات تجارية جديدة باستمرار نعيش على وقعها المكلف حقاً.

تخضع النساء اليوم لدكتاتورية من نوع فريد وهي دكتاتورية الجمال المنمَّط، فمنهن من ترغبن في أنف ممثلة سينمائية، تربيعية أو بيضاوية وجه أخرى ومنهن من تتمثلن بشفاه أو صدور بل أرداف صنعية(٢)...

ولكن بالمقابل هناك الكثيرات ممن كشفن الغش أعرضن عن الدخول في سوق للنخاسة من جديد والأمل فيهن كبير.

٢- كيف تبدو الجراحة التجميلية في الوقت الحاضر

لقد بدأ مفهوم الجراحة التجميلية للمرأة يتبدل منذ عشرين عاماً، فلم تعد النساء تتمثلن بالنجوم في عالم الفن على الخصوص ولم تعد تصررن على العودة بأعمارهن إلى عشرين أو ثلاثين سنة ذوت.

نساء اليوم تغيرن..

هنّ يردن البقاء أنفسهن بنفس التعابير ولكن بحيوية أكبر بعد تخليصهن من آثار العمل في جلودهن..

---

(٢) تشير أرقام جمعية جراحي التجميل في ألمانيا على سبيل المثال إلى أن /٣٦٠/ ألف جراحة تجميل أجريت عام ٢٠٠٢ بالمقارنة بعشرين ألف فقط عام ١٩٩٠.

openkandil.com

وهن على الغالب نساء مرهفات لهن وضع خاص بعد انفصال أو ترملّ أو تأثر بقصة من قصصهن المؤلمة كردّ فعل على الأسى.. ومن النساء من لا تريد أن تظهر بنت العشرين ولكنها تريد وبإصرار أن تكون ناجحة الجمال في الخمسين!

وربما كانت على حق في ذلك.

ناجحة الجمال في الخمسين لها من الحياة ما يؤهلها لممارسة الجاذبية ما يفوق بكثير بنت العشرين..

والمرأة بارعة بالفطرة.

والسؤال الذي يدور اليوم حول الجراحة التجميلية هو لم لا؟ وليس لماذا؟

والخيار الحقيقي هو مسألة شخصية.

ولكن هل المخاطرة ولو كانت طفيفة مقبولة في مجال الجراحة التجميلية لا سيما إذا كانت غير ضرورية؟

يميل معدل أعمار الإنسان إلى الارتفاع في عصرنا ومعه تصبح عملية تحسين "الواجهة" أمر مرغوب فيه للراحة النفسية والتناغم مع الوسط الخارجي.

إننا اليوم في عصر نحافظ فيه على شباب الروح مدة أطول ومعه يشعر البعض بضرورة مرافقة شباب الروح بجسد مُحسّن بل مرمم. لم لا؟

وإذا لم نستطع اختراق المرآة أو كسرها لمَ لا نخلّفها خلف ظهورنا؟

٣- ما هو جواب الجراحة التجميلية؟

لقد أكّد أحد علماء الاجتماع حديثاً في مؤتمر حول تصرف النساء إزاء العلوم التجميلية في أمريكا على أنه في العشرية القادمة سيزداد طلب النساء على الجراحين التجميليين بنسبة خمسين بالمئة! وأنه سوف يُنظر إلى المرأة بتجاعيدها على أنها امرأة مهملة لنفسها كما ينظر اليوم للمرأة التي لا تعنى بنظافة أسنانها أو تدع فروة رأسها تتكشف عن جذور شعرها المصبوغ..

إنه كلام لا شك مبالغ فيه ولعمري محرضٌ مغرض!

إن المسؤولية الكبرى تقع على الجراح قبل غيره، فهو الذي يعرف الأشكال والأنماط المورفولوجية للوجوه وهو الذي يحيط بملامحها ويدقق في تفاصيلها وهو المؤهل بالطبع ليقرر ما يمكن تحويله وتجميله.

إن الحصول على نتيجة مرضية "طبيعية" هو رهن مهارة الجراح ولو كان لتطور التقنيات الحديثة دور لا يُستهان به في ممارسة مثل هذه العمليات الجراحية.

لأن الجّراح هو وحده الذي بإمكانه دراية تعابير ونضارة وبسمة بل نظرة الإنسان المُعالَج وهو في معالجته لشكل خارجي لابد قد تفّهم قبل غيره ما يدور في أعماق صاحب الشكل نفسه، إنه بمثابة الوسيط مابين "الزبون" وروحه الحيرى.

لاشك أنه فنان وحرفي في نفس الوقت لأنه يحرص على "رونقة" تعابير زبونه بإزالة آثار الزمن القاسي عليه. إنه دليل الزبون إلى كينونة أفضل. إنه كمن يُفقِده صورة المرآة للتصالح مع مرآة ذاته.

٤- صيانة الجمال: مفهوم آخر

يسود اليوم في أوساط بعض الاختصاصيين في الجراحة التجميلية مفهوم أقرب إلى لغة الكثيرين من زبائنهم بعد الجراحة وهو الصيانة بعد العملية. كما لو أنك تصلح أداة منزلية وتطلب بطاقة ضمانة بالصيانة إن لزم الأمر، لسنة، لسنتين أو لخمس سنين.. وهو بالنسبة للجراحة التجميلية أمر وارد في الحقيقية تشريحياً عندما يتعلق الأمر في التخلص من تجاعيد الوجه والرقبة وشدّ البطن وغيرها. وذلك لأن الزبائن حريصون هذه المرة على عدم الوقوع في شرك الترهل من جديد ولأن الجلد نفسه من وجهة نظر الأخصائيين لا يبقى على حالته بعد العملية ويتعلق بعمر الجلد نفسه الذي يحدد درجة ارتخائه مع العضلات.

يجدد الجلد نفسه كلياً كل خمس سنوات(٣)، إلا أن هذا العمل يتباطأ حيوياً كلما تقدم العمر بنا.

---

(٣) في حين يستغرق الشعر من ٢-٨ سنوات ليتجدد بالكامل بمعدل سنتيمتر واحد شهرياً.

obeikandl.com

والحقيقة أن الجلد الحالي مثلاً ليس هو الجلد نفسه الذي حملناه عند الولادة، ونحن صغار، ولكن عملية الصيانة تلك مقصورة على من أُجريت له جراحة تجميلية ولا يمكن للجراح القيام بمثل تلك الجراحة على أكمل وجه على دفعات متباعدة زمنياً.

ومع ذلك فإن عملية الصيانة بعد الجراحة التجميلية تعتبر عملية ناجحة جداً عندما يتعلق الأمر بلمسات صغيرة أو عندما تكون المعنية بالأمر مثلاً امرأة شابة لا يتطلب جلدها عملية جراحية تجميلية.

وفي النهاية هل الجراحة التجميلية ضرورة أم ترف؟

هل هي وسيلة علاجية أو تكميلية مشكوك في صلاحيتها زمنياً؟

قديماً كانت الجراحة العلاجية تُستعمل في إصلاح التشوهات الولادية أو في إصلاح التشوهات الناجمة عن الحروق والحوادث.

ولكن للجراحة التجميلية نتائج سلبية على صاحبها بالتأكيد مستقبلاً لاسيما إذا أُجريت في سن مبكرة حيث يكون الجلد في طور النمو مع الجسم الأمر الذي قد يعطي بعد العملية مظهراً مغايراً بتشوه آخر يقترن بتداعيات نفسية يطلق عليها المختصون رهاب التشوه*.

ولابد من التذكير أيضاً على أن الكثيرين ممن يمارسون الجراحة التجميلية ليسوا اختصاصيين بالضرورة بل في مجالات بعيدة نسبياً ولا يجوز مثلاً لطبيب هضمية أن "يتبرع" ويجري عمليات شفط دهون أو طبيب جلدية يشد الوجه والعنق والجفون المرتخية ولا طبيب النسائية لنفخ الشفاه وغيرها..

---

* رُهاب التشوّه:

هو اضطراب توهم التشوه الجسدي ويتعلق بحالة مرضية متعلقة بتشوه في شكل منطقة معينة من الجسد كالأنف أو الشفتين أو الثديين أو الردفين وفي أغلب الأحوال يكون ذلك مبالغاً فيه بدرجة كبيرة إلى حد الذهاب إلى جراح التجميل الذي قد يخطئ وتزداد حالة المريض سوءاً.

إن النظر في المرآة للاطمئنان وإعادة الاطمئنان وتكرار الزيارة للجراحين التجميليين وأطباء الجلدية تبدو كأفعال قهرية على خلفية من القلق والتوتر.

obeikandi.com

obeikandl.com

خلاصة

لقد تعرضت في هذه الصفحات إلى الانطباعات والمشاعر والقناعات التي أحملها حول مفهوم الجاذبية بيولوجياً..

إنني إذ أقول بأن الجاذبية لا يمكن إرجاعها إلى أبعاد مورفولوجية صرفة إنما أعتبر أنها حالة سلوكية وطريقة للكينونة في الحياة.. وإشعاع كذلك.

تترافق سلوكية الجذّاب أو الجذّابة بتبدلات كيميائية في العضوية تنشط على أثرها شبكات عصبونية في الدماغ تثير هذه المواد الكيميائية حالة الجاذبية هذه ولا تسبّبها.

يتمركز تحت القشرة الدماغية ما يسمى بالجهاز الطرفي وهو جهاز أو منطقة أو "دماغ" يعود اكتشافه إلى نهاية الأربعينات وهو على اتصال نسيجي وثيق بالمراكز الدماغية الأخرى ويعتبر بحق مايسترو تنبيه العصبونات والحث على إفراز الهورمونات المثيرة لحالات من الجاذبية.

إن تنبيه هذه المراكز بل فتح داراتها يمكن تحقيقه إرادياً وهو محسوب لنا كفتح مبين.

آمل أن أكون قد وُفقت في إظهار كيف أننا نستطيع بأنفسنا تنشيط جهازنا الطرفي وإشعال فتيل الجاذبية فينا وهذا ما يميزنا في إنسانيتنا عن العالم الحيواني حيث أن تنشيط الإفرازات الهورمونية الجاذبة إنما يتمّ تفاعلياً بوجود الذكر أو الأنثى أو بحدث خارجي وليس باطني.

نعم إن الإنسان قادر على تشغيل محرك الجاذبية فيه لو رغب في ذلك. وكما أن عضوية الإنسان ليست بآلة فإن الجاذبية لا يمكن حصرها بكمّ من الحركات والكلمات.

إنها هالة تطوف من أعماقنا وتعلو فوق كل شيء.. كالحرية.

oberkanal.com

إن الاصطفاء الطبيعي – وهو سيّد العالم – سوف يعرف كيف يصطفي الإنسان الأكثر تكيفاً مع المجتمع وحدسي أنه سوف يختار للحقبة القادمة الأكثر جاذبية.

إن هذا البحث هو بمثابة تحدٍّ للنساء والرجال على حد سواء، تحدٍّ يحثهم على تطوير قوى الجاذبية الحيوية في أنفسهم، إننا نملك جميعاً البنى التشريحية والفيزيولوجية اللازمة لذلك، شرط ألاّ تكون هذه البنى رهينة أعماق اللاوعي القهري.

الجاذبية مستقبل الإنسان المعاصر.

إنها أفضل تكيف مع الحياة عندما تقسو وفي كل وقت. وإذا ما عرفنا أن الجاذبية لا تأتي عن الجمال المورفولوجي فإننا نفهم بسهولة كيف أن البحث عن الجمال الصنعي في أيامنا هو بمثابة رفض للذات كما خُلقت.

بعد حكم المحاربين الأشاوس الذين نالوا إعجابنا لقرون عديدة، بعد حكم الذكاء الذي كان عليه تغيير وجه العالم وأفلح، وبعد دكتاتورية الخيلاء والجمال والنجاح في كسب المال، ألم يحن الوقت لحكم أفضل؟ حكم يقوم على العقلانية في علاقاتنا ولكن بنكهة المشاعر إرادياً؟

لتبقى الجراحة التجميلية بعدئذٍ ملاذاً للذين ما برحوا يبحثون في تيه الجمال المقفر.

كل هذا يتطلب تطور عقلية الرجل وتطور عقلية المرأة وتطور مفهومها للعلاقة المتبادلة.

وثمة مؤشراتٍ تُظهر حواء متقدمة على آدم مرة أخرى.